سفير العلم والدعوة

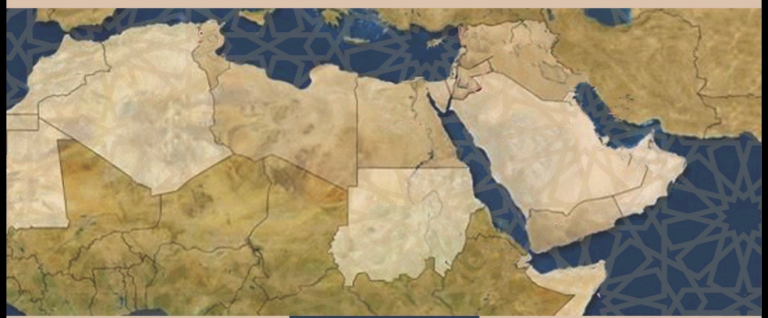

الطبعة السادسة

تأليف
فهد بن يحيى العماري
القاضي بمحكمة الاستئناف بمكة المكرمة

دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع

صناعة الوعي الراشد

إنَّ الوعيَ ليس ترفًا فكريًّا يُزيِّن العقول، بل هو نورٌ يقذفه الله في القلب، تُبصر به النفوس حقائق الأشياء، وتزن به الأحداث والأفكار بميزان الحكمة والبصيرة. وما ارتفع عالمٌ بعلمه، ولا ثبت داعيةٌ في دعوته، ولا قاد عظيمٌ أمةً أو أصلح مجتمعًا؛ إلا وكان وراء ذلك عقلٌ واعٍ، ونظرٌ نافذ، وفهمٌ عميقٌ للناس والحياة والسنن.

فالوعي هو روحُ العلم، وسرُّ الفقه، وعينُ البصيرة. وكم من حافظٍ للمعلومات قليلِ الإدراك، وكم من متكلمٍ واسعِ الثقافة ضيقِ الفهم، لأن القضية ليست كثرة ما يُحفظ، وإنما حسن ما يُفهم، وعمق ما يُدرك، وصواب ما يُحلَّل.

والعالمُ بلا وعي قد يضع العلم في غير موضعه، وطالبُ العلم بلا وعي قد تشغله الجزئيات عن الكليات، والداعيةُ بلا وعي قد يفسد من حيث أراد الإصلاح، والعظيمُ بلا وعي قد تهدمه العاطفة أو يخدعه المظهر أو تستدرجه الشعارات.

ولهذا كان الوعي من أعظم أسباب النجاة في زمن الفتن، وأقوى أسباب الثبات في عصر التغيرات؛ إذ به يعرف الإنسانُ مداخلَ الخير والشر، ويميّز بين الحقائق والدعايات، وبين الثابت والمتغير، وبين ما ينفع الأمة وما يضرها.

وقد ربّى القرآنُ الجيلَ الأول على الوعي قبل كل شيء؛ ففتح

عقـولهم للتفكـر، وقلـوبهم للتـدبر، وأبصـارهم للنظـر فـي سـنن الله فـي الأنفس والآفاق، فخرجوا من ضيق الجهل إلى سعة البصيرة، ومن التبعية إلى القيادة، ومن الانفعال إلى صناعة التاريخ.

فالوعي ليس كثرةَ نظرٍ في الأخبار، ولا متابعةً للأحداث فحسب، بل هـو فقهٌ يربط بين العلـم والواقـع، وبين الـنص والحياة، وبين المقاصـد والنتـائج. وهـو صـفةُ العقـلاء، وزينـةُ العلمـاء، وسـلاحُ الـدعاة، وعـدّةُ المصلحين، وركيزةُ كل مشروعٍ عظيم.

وفـي زمـنٍ تتصـارع فيـه الأفكـار، وتتنـافس فيـه القـوى علـى توجيـه العقـول وصـناعة القناعـات، أصـبح الـوعي ضـرورةً لا غنـى عنهـا؛ لحفـظ الـدين، وصـيانة الهويـة، وحمايـة المجتمعـات مـن الانخـداع والانحـراف والاضطراب.

يـذكر الفقهـاء فـي كتبهـم أن علـى المفتـي والقاضـي ونحـوهم معرفـة أعراف البلد وأحكام القضاة السابقين وما عليه جرى العمل ونحوه قضاء وفتوى، وقد قال ﷺ لمعاذ حينما بعثه إلى اليمن: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الله، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ**»[(١)].

والقاعدة الشرعية: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)[(٢)].

وهـذا كلـه دليـل علـى أن طالـب العلـم والداعيـة يعـرف واقـع البلـد ويفهمـه فهمًـا جيـدًا، حتـى يـدرك مـن خـلال ذلـك كيـف يـدعو النـاس ويعلمهـم، ومـا هـم عليـه مـن الأمـر، ولا يخالـف عاداتهم فيجفلـون منـه،

(١) رواه البخاري (رقم ١٤٥٨) ومسلم (رقم ١٩).
(٢) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (٢/ ١٣٤).

ويقع في بعض الأخطاء التي ربما كانت سببًا في الصد عنه وحدوث بعض المفاسد.

قال ابن عقيل في واضحه: (فمتى لم يكن الفقيه ملاحظًا لأحوال الناس عارفًا لهم، وضع الفتيا في غير موضعها)[1].

ومن وعي الواقع ما يشير إليه بعض المعاصرين: من معرفة أحوال المسلمين، وما يراد لهم من التحديات والعقبات والمستجدات، وما يسمى فقه المرحلة والنوازل المرتبطة بالأحكام الشرعية، وغير ذلك من الأمور، ولا مشاحة في الاصطلاح، والشريعة شاملة لكل زمان ومكان.

ووعي الواقع ومعرفته: منه ما هو من صلب العلم، ومنه ما هو من مُلَحه، ومنه ما هو خارج عنهما.

وهذا الأمر الناس فيه طرفان ووسط، من يفرط ويوغل فيه ويفصله عن العلم الشرعي وقواعد الدين، ومن يفرّط فيه ويعرض عنه تمامًا، والوسط مطلب.

فطالب العلم والداعية إلى الله ينبغي أن يعرف ويدرك الواقع، وألا يكون في معزل عما يدور في محيطه المحلي أو العالمي حتى لا يقع في أخطاء جسيمة، سواء في جانب الفتوى أو الدعوة والتربية، كما هو مشاهد من بعضهم، وقد يلبّس عليه في ذلك فتزل به القدم.

وليس كل أحد يتكلم في الواقع، فلابد من معرفة شروطه وأهلية حامله لإدراكه وسبر أغواره، وكيفية حال من يريد تعلمها واستنباطها، وكيفية تحصيل تلك المعرفة وغيرها كسائر العلوم مع العلم الشرعي،

(١) الواضح في أصول الفقه (٥/ ٤٦٣).

فمريد معرفة الواقع لابد أن يكون عنده أصول وقواعد شرعية ينطلق من خلالها حتى لا يَهلك ولا يُهلك، ولا يَضِل ولا يُضَل.

فـلا تُـوغِلَنّ إذا مـا سـبَحتَ فـإنّ السـلامةَ فـي السـاحل

قال ابن الوزير: (وأكثر الناس لا يصبر عن الخوض فيما لا يعنيه ولا يتكلم بتحقيق ما يخوض فيه، وهذا هو الذي أفسد الدين والدنيا، فرحم الله من تكلم بعلم أو سكت بحلم)[١].

وقال القرافي المالكي: (وكم يخفى على الفقهاء والحكام الحق في كثير من المسائل بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العلية ألا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم ذلك)[٢].

الذكاء لا يكفي.. والوعي ليس ادعاءً

الوعي أركان متكاملة:

- **الوعي الديني:** يربط العبد بالله ويهديه للحق.
- **الوعي الفكري:** يحمي العقل من الانحراف والشبهات.
- **الوعي الاجتماعي:** يفهم طبائع الناس وأحوال المجتمعات.
- **الوعي الحضاري:** يوسع المدارك ويفقه سنن التاريخ.
- **الوعي الذاتي:** يعرف به الإنسان قدر نفسه وحدوده.

الـذكاء بـلا حكمـة مهلكـة: كـم من أذكياء حملوا أفكارًا براقة، فأفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح؛ لأنهم ظنوا "المُتخيَّل العقلي" قابلًا للتطبيق فورًا، وغفلوا عن سنن المجتمعات.

(١) العواصم والقواصم (٧/ ٥).
(٢) الذخيرة (٥/ ٥٠٢).

الوعي ليس ثرثرة: ليس الوعي أن تصبح محللًا لكل قضية، بل أن تدرك ثغرك، وتعرف حدود قدراتك، وتتقن تخصصك.

معادلة الوعي الحقيقي

الوعي الذي تحتاجه الأمة اليوم هو هندسة دقيقة **تجمع بين خمسة أركان:**

- **نور الشريعة:** مرجعية الوحي الحاكمة.
- **فقه الواقع:** قراءة العصر بأدواته لا بأمنياتنا.
- **حكمة العقل:** اتزان التفكير وعمق النظر.
- **معرفة الناس:** مراعاة أحوال المخاطَبين وطبائعهم.
- **البصيرة النافذة:** كبح التسرع والاندفاع لحساب مآلات الأفعال.

إلى صناع الأمة

◊ **أيها العلماء والدعاة والعظماء:**

لم يكن النجاح يومًا في "وفرة الأفكار"، بل في "حُسن الفهم، وصواب التقدير، والحكمة في تنزيل الحق على واقع الخلق". احملوا وعيًا يبني اللبنات، ولا يثير الفوضى في المنعطفات ولا يسلخ الناس من دينهم.

أسباب الانحراف في الوعي

إن طريقة تفكير الناس اليوم تتعرض لعملية تشويه وسطحية وتقزيم، تَحَوَّل فيها العقل من أداة تفكر وفهم، إلى وعاء للأخبار والمعلومات دون تمحيص.

(١) **أزمـة التلقـي الرقمـي:** الاسـتهلاك السـريع، والارتهـان لـ "التريـندات" والمقاطع المجتزأة، يورث سطحية فكرية وتسرعًا في الأحكام وعجزًا عن ربط الأحداث بمقاصدها.

(٢) **الهشاشة المنهجية:** غياب التأصيل الشرعي، وضعف القراءة الجادة، أدى إلى اضطراب المواقف، وتضخيم الهوامش على حساب القضايا الكبرى.

(٣) **التبعيـة النفسـية:** غيـاب القـدوات الميدانيـة، والانبهـار الأعمـى بالثقافات الوافدة، يثمر ضعفًا في الانتماء للهوية، وتأثرًا سريعًا بالشائعات والدعايات.

(٤) **لوثة التعصب:** الانكفاء على الأشخاص والجماعات دون برهان، مما يعطل العقل ويغيب الحوار العلمي.

أدوات بناء الوعي الراشد

بناء الوعي ليس ترفًا معرفيًا، بل هو استراتيجية بقاء للأمة، وتتحقق **عبر أربعة مسارات حاسمة:**

(١) **المرجعيـة والتأصـيل:** العـودة للقـرآن والسـنة بفهـم السـلف الصـالح، وملازمة العلماء وأهل البصيرة لبناء "أجهزة المناعة الفكرية".

(٢) **الفطام الرقمي:** تقليل التشتت الإعلامي، ومكافحة السطحية المعرفية وتعزيز الرسوخ العلمي والفكري بـ القراءة المنهجية وتدريب النفس على التأمل والتحليل.

(٣) **أدب التلقي:** التثبت الصارم في النقل، ومحاكمة الواقع إلى الثوابت لا العكس، مع مرونة تدرك تغيرات العصر ومتطلباته.

(٤) **فقه الأولويات**: تقديم كليات الأمة ومصالحها الكبرى، والترفع عن معارك الهامش وصغائر المسائل.

فصل الخطاب

الوعي ليس تكديسًا للمعلومات، بل هو "نور وبصيرة"؛ به تتمايز الصفوف، وبتوازنه تثبت الأقدام في مهب التحولات.

هذا، وإن من أعظم صور التوفيق والهداية أن يُهدَى العالم والداعية إلى فهم مشكلات واقعه العلمية والدعوية والمجتمعية، وإدراك مراتب خطورتها، ثم يُهدَى إلى موافقة الحق في طريقة علاجه لها، وإلى تقديم الأهم على ما دونه في أولوية الاشتغال بالتعليم والبحث والدعوة وغيرها من الثغور والأولوية في مضامينها، فيستحق بذلك وصف «الحكمة» التي يأتي الحديث عنها وعن فقه الأولويات، وهذا منهج الأنبياء ﷺ في فقه الأولويات وتقديم المصالح الأجدر بالعناية على ما دونها.